

أُسرى وسبايا يصنعون الحرية

: ونظرت إلى زينب بنت علي يومئذ، ولم أر خفرة والله أنطق منها، كأنها تفرع من لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد أومات إلى الناس أن اسكتوا، فارتدت الأنفاس، وسكنت الأجراس، ثم قالت:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ عَلَى جَدِّي مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ، يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، يَا أَهْلَ الْخَنْدَلِ» (٣) وَالْغَدْرُ، أَتَبْكُونَ؟ فَلَا رَقَاتِ الدَّمْعَةِ، وَلَا هَدَاةَ الزُّنَّةِ، إِنَّمَا مِثْلُكُمْ كَمِثْلِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ... أَتَبْكُونَ وَتَنْحَبُونَ؟ إِيَّايَ وَاللَّهِ فَابْكُوا كَثِيرًا، وَأَضْحَكُوا قَلِيلًا، فَلَمَّا دَهَبَتْ بِغَارِهَا وَسَنَارِهَا... وَيَلَكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَتَدْرُونَ أَيَّ كَيْدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ؟ وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَرْتُمْ؟ وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ؟ وَأَيَّ حَرَمَةٍ لَهُ انْتَهَكْتُمْ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا ضُلَفَاءَ غَنَاءَ سَوْدَاءَ فَقَمَاءَ... أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ مَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَأَنْتُمْ لَا تَتَصَرَّوْنَ...»

فقد تمكنت عليها السلام بمواجهتها الجريئة للظالمين إيضاح الصورة للرأي العام وإثارتهم على الأمويين، وإظهار المصيبة الكبرى التي داهمت العالم الإسلامي بقتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، فلقد قرعتهم عقيلة الرسول بخطابها البليغ، وعرفتهم زيف إسلامهم، وكذب دموعهم، وأنهم من أحط المجرمين، فقد اقترفوا أفظع جريمة وقعت في الأرض، بقتل الإمام

وهذا ما جعل عاشوراء تخلد عبر التاريخ، فكان كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء.

٢- موكب العزة والحرية: تحرّك موكب سبايا أهل البيت عليهم السلام من كربلاء المقدّسة نحو مدينة الكوفة وهو يقطع الصحاري، في الحادي عشر من المحرم ٦١ هـ، وقد حمل جيش عمر بن سعد السبايا على أحلاس أفتاب الجمال بغير وطاء ولا غطاء، وساقوهم كما يساق سبي الترك والروم في أشد المصائب، وتتقدّمهم الرؤوس على الرماح، حتى دخل الركب الكوفة في اليوم الثاني عشر من المحرم ٦١ هـ، واقتسمت القبائل الرؤوس بينها... (١). وقد تمكّنت السيدة زينب عليها السلام - في هذه الظروف القاسية والصعبة - أن تقود المسيرة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وأن تكمل النهج الحسيني بكل جدارة وثبات وقوة، وذلك من خلال حركة جهادية ثابتة وراسخة في وجه الظلم البيدي والحدق الأموي.

٣- صوت الحرية والحق في الكوفة: لما دخل موكب السبايا الكوفة، خرج الناس إلى الشوارع، بين مُتَسَائِل لا يدري لمن السبايا، وبين عارف يكفكف أدمعاً ويضمّر ندماً ولما اتّجه موكب السبايا نحو قصر الإمارة، مُخْتَرِقاً جموع أهل الكوفة، وهم يكون لما حلّ بالبيت النبوي الكريم، قال بشير بن خزيمة الأسدي (١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٤.

محاور الموضوع الرئيسية:

- موكب العزة والحرية.
- صوت الحرية والحق.
- مواقف الأحرار في وجه السجّانين الطفّاة.

الهدف:

التعرّف على مبادئ الحرية من مواقف السيدة زينب في مواجهة الأمويين وأعدائهم الظلمة.

تصدير الموضوع:

قالت السيدة زينب عليها السلام في خطبتها في الشام: «أَلَا فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِقَتْلِ حَرْبِ اللَّهِ النَّجْبَاءِ بِحَرْبِ الشَّيْطَانِ الطَّلَقَاءِ».

١- الثورة الفريدة بشهادتها

وأسراها: ثورة الإمام الحسين عليه السلام نموذج من الثورات الفريدة في تاريخ البشرية، في أهدافها، ومبادئها، ونتائجها، وقادتها، وشهادتها، وأسراها وسباياها، فقد أرسى دم الإمام الحسين عليه السلام وأهله وأصحابه على مدار التاريخ مجموعة من المبادئ والثوابت، في مواجهة الظلم والظالمين مهما غلت التضحيات، وقُلّ العدد، وتواضعت العدة والعتاد، وأرسى أسرى وسبايا البيت الحسيني في وجه الطفّاة، مسار الحرية والثبات على الحق، والصبر والإرادة الصلبة، وإن كبّلت الأصفاد الأيدي والأرجل.



إليه يصعد الكلم الطيب

الذي أراد لهم الخير، وفروا بقتله كبد رسول الله ﷺ وانتهكوا حرمة، وسبوا عياله، فأى جريمة أشنع من هذه الجريمة.

٤- مواقف الأحرار في وجه السجّانين الطغاة: يمكننا أن نستخلص من مسيرة سبايا وأسرى كربلاء، مجموعة من المواقف والثوابت في مواجهة الظالمين على مر التاريخ وإن كبّلت أيدي الأحرار بالأغلال، وقد قاد هذه الحركة السيدة زينب ؑ في العديد من الموارد والأماكن نذكر منها:

أ- الموقف الأول: في مواجهة الطاغية: ولما روى المجرم الخبيث ابن مرجانة أحقادهم من رأس ريحانة رسول الله ﷺ خاطب السيدة زينب ؑ قائلاً: الحمد لله الذي فضحكهم وقتلكم، وأبطل أهدوثكم.

فأجابته بشجاعة أبيها محترمة له قائلة: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه، وطهرنا من الرّجس تطهيراً، إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا بن مرجانة». وكذلك عندما خاطبها مستهزئاً: كيف رأيت صنع الله بأخيك؟ فأجابته حفيضة الرسول بكلمات الظفر والنصر لها ولأخيها قائلة: «ما رأيت إلاّ جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحتاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ، تكلتك أمك يا بن مرجانة...».

ب- الموقف الثاني: حماية الإمامة: لما أمر ابن مرجانة بعض جلاديه بقتل الإمام زين العابدين ؑ، قائلاً: خذ

هذا الغلام واضرب عنقه، فانبرت العقيلة بشجاعة، واحتضنت ابن أخيها، وقالت لابن مرجانة: «حسبك يا بن زياد ما سفكت من دمائنا، إنّك لم تبق منّا أحداً، فإن كنت عزمت على قتله فاقتلني معه...». وبهر الطاغية وانخدل، وقال متعجباً: دعوه لها، عجباً للرحم ودت أن تقتل معه.

ج - الموقف الثالث: فوالله لا تمحون ذكرنا:

لما وصل موكب السبايا والأسرى إلى الشام، وأدخلوهم إلى مجلس الطاغية يزيد بن معاوية، وأظهر الطاغية فرحته الكبرى بإبادته لعتره رسول الله ﷺ، وأخذ يهز أعطافه جذلاً متمنياً حضور القتلى من أهل بيته بيدد ليريهم كيف أخذ بثأرهم من ذرية النبي ﷺ، وراح يترنم هذه الآيات التي مطلعها:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدِ شَهِدُو
جَزَعُ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلُ
ولما سمعت العقيلة هذه الآيات ألقّت خطبتها وقد ضمّنتها أعنف المواقف بوجه يزيد ومما قالته ؑ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ...»
- أَمِنْ الْعَدْلِ يَا بَنَ الطُّلَقَاءِ
تَحْدِيرُكَ حَرَائِكَ وَإِمَاءَكَ وَسَوْفَكَ
بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ سَبَايَا؟ قَدْ هَتَكَتِ
سُتُورَهُنَّ، وَأَبْدَيْتِ وُجُوهَهُنَّ، تَحْدُو
بِهِنَّ الْأَعْدَاءُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، ..
وَيَتَصَفَّحُ وُجُوهَهُنَّ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ..

- اللَّهُمَّ خُذْ بِحَقِّنَا، وَانْتَقِمْ مِنْ ظَلَمْنَا، وَأَحْلِلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَنَا وَقَتَلَ حِمَاتَنَا. فوالله ما فرّيت إلاّ جلدك، ولا حرّزت إلاّ لحمك،

وَلَتَرِدَنَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا تَحَمَّلْتَ مِنْ سَفَكِ دِمَائِ ذُرِّيَّتِهِ، وَانْتَهَكْتَ مِنْ حُرْمَتِهِ فِي عَتَرَتِهِ وَلَحْمَتِهِ...

- وَلَيْسَ جَرَّتْ عَلَيَّ الدَّوَاهِي مَخَاطِبَتِكَ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ قَدْرَكَ، وَأَسْتَغْظُمُ تَقَرُّبِكَ، وَأَسْتَكَثِّرُ تَوْبِيخَكَ، لَكِنَّ الْعَيُونَ عَبْرَى، وَالصُّدُورُ حَرَى. أَلَا فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِقَتْلِ حَرْبِ اللَّهِ النُّجَبَاءِ بِحَرْبِ الشَّيْطَانِ الطُّلَقَاءِ.

- فَكَيْدَ كَيْدِكَ، وَاسْعَ سَعْيِكَ، وَنَاصِبَ جَهْدِكَ، فَوَاللَّهِ لَا تَمُحُونَ ذِكْرَنَا، وَلَا تَمِيتُ وَحْيَنَا، وَلَا تَذَرُكَ أَمَدْنَا، وَلَا تَرْحُضُ عَنْكَ عَارَهَا.

فقد تمكّنت السيدة زينب بمواقفها هذه من مواجهة رأس الظلم آنذاك بشكل مباشر يتضح في مختلف فقر خطبتها الشهيرة، ولكن يمكن إجمال أهمها بالآتي:

- تأنيب المجرم مهما مهما علا شأنه، وقوي سلطانه، وكثر ظلمه، وسفكه للدماء، وأهم من ذلك أن توبيخه حصل في قصر إمارته وأمام أعوانه.

- اللجوء إلى الله والدعوة على الظالمين، وبأخذ الحق منهم، وإنزال الغضب عليهم، وهذا غاية الإيمان والتسليم.

- استصغار قدر الطاغية في محضر قوته وغطرسته، وأن الحق هو الذي اضطرها ؑ لمخاطبتها.

- التأكيد على ثبات الدين والوحي ونهج رسول الله ﷺ وأهل بيته ؑ واستمراره، وعدم تمكّن أحد من محوه أو القضاء عليه، حيث أقسمت بعبارة حاسمة نابعة من يقين والإيمان «فوالله لا تمحو ذكرنا».